

أجواء من العبث فى "المقامة الحلوانية"
لبديع الزمان الهمذانى

أولاً عرض: المقامة الحلوانية لبديع الزمان الهمداني^(*)

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الْحَجِّ فِيمَنْ قَفَلَ^(١) وَنَزَلْتُ حُلْوَانَ^(٢) مَعَ مَنْ نَزَلَ. قُلْتُ لِغَلَامِي: أجدُ شَعْرِي طَوِيلًا وَقَدْ اتَّسَخَ بَدَنِي قَلِيلًا. فَأَخْتَرْنَا حَمَامًا نَدْخُلُهُ وَحَجَامًا نَسْتَعْمَلُهُ^(٣). وَلَيْكُنَّ الْحَمَامُ وَاسِعَ الرُّفْعَةِ^(٤)، نَظِيفَ الْبُقْعَةِ^(٥)، طَيِّبَ الْهَوَاءِ. مُعْتَدِلَ الْمَاءِ^(٦). وَلَيْكُنَّ الْحَجَامُ خَفِيفَ الْيَدِ، حَدِيدَ الْمَوْسَى، نَظِيفَ الثِّيَابِ، قَلِيلَ الْفُضُولِ^(٧). فَخَرَجَ مَلِيًّا^(٨). وَعَادَ بَطِيًّا. وَقَالَ: قَدْ اخْتَرْتُهُ كَمَا رَسَمْتِ. فَأَخَذْنَا إِلَى الْحَمَامِ السِّتِّ^(٩). وَأَتَيْنَاهُ فَلَمْ نَرَ قَوَامَهُ^(١٠)، لَكِنِّي دَخَلْتُهُ وَدَخَلَ عَلَيَّ أَثْرِي رَجُلٌ وَعَمَدَ إِلَيَّ قِطْعَةَ طِينٍ فَلَطَخَ بِهَا جَبِينِي وَوَضَعَهَا عَلَيَّ رَأْسِي. ثُمَّ خَرَجَ وَدَخَلَ آخِرُ فَجَعَلَ يَذَلِكُنِي دَلَكًا يَكْدُ الْعِظَامَ^(١١)، وَيَعْمِزُنِي عَمْرًا يَهْدُ الْأَوْصَالَ^(١٢).

(*) هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمداني أبو الفضل (358 - 398 هـ = 969 - 1008 م): أحد أئمة الكتاب. له مقامات - ط، أخذ الحريري أسلوب مقاماته عنها. وكان شاعرًا وطبقته في الشعر دون طبقته في النثر. ولد في همدان وانتقل إلى هراة سنة 380 هـ فسكنها، ثم ورد بنيسابور سنة 382 هـ ولم تكن قد ذاعت شهرته، فلقى أبا بكر الخوارزمي، فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة، فطار ذكر الهمداني في الأفاق. ولما مات الخوارزمي خلا له الجو فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها ولا ملكًا ولا أميرًا إلا فاز بجوائزه. وكان قوى الحافظة يضرب المثل بحفظه. ويذكر أن أكثر "مقاماته" ارتجال، وأنه ربما يكتب الكتاب مبتدئًا بأخر سطره ثم هلم جرا إلى السطر الأول فيخرجه لا عيب فيه! وله ديوان شعر - ط. صغير ورسائل عدتها 233 رسالة ووفاته في هراة مسمومًا. انظر في هذا الأعلام، 1/115-116.

(١) قفل: رجع. وانظر هذه المقامة في: بديع الزمان الهمداني: مقامات بديع الزمان الهمداني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة، مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية، 1342 هـ/ 1923 م، ص 223-234.

- (٢) حلوان: اسم بلد مما يلي الجبال من بغداد.
- (٣) الحجام: الحلاق، أصل الكلمة: الشخص الذي يقوم بمص الدم الفاسد من الجسم بالمحجمة.
- (٤) كبير المساحة.
- (٥) أى المكان الذى يستنقع فيه الماء.
- (٦) معتدل الماء: وسطًا بين البرودة والسخونة.
- (٧) الفضول: الزيادة، والمقصود هنا الكلام الكثير.
- (٨) مليًا: وقتًا طويلًا.
- (٩) سمت: الجهة، والمعنى: أننا سرنا متجهين نحو الحمام لنقضى منه حاجتنا.
- (١٠) قوامه: صاحبه.
- (١١) يكد: يتعب.
- (١٢) يهد: يكسر، الأوصال: المفاصل.

وَيُصَفِّرُ صَفِيرًا يَرِشُّ الْبُرَاقَ^(١)، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَأْسِي يَغْسِلُهُ، وَإِلَى الْمَاءِ يُرْسِلُهُ^(٢)، وَمَا لَبِثَ أَنْ دَخَلَ الْأَوَّلَ فَحَيًّا أُخْدَعُ^(٣) الْثَّانِي بِمَضْمُومَةٍ^(٤) بِمَضْمُومَةٍ^(٥) فَعَفَعْتُ أَنْيَابَهُ. وَقَالَ: يَا لَكُوعٍ مَا لَكَ وَلِهَذَا الرَّأْسُ وَهُوَ لِي^(٦). ثُمَّ عَطَفَ^(٧) الْثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ بِمَجْمُوعَةٍ^(٨) هَتَكَتْ حِجَابَهُ^(٩) وَقَالَ: بَلْ هَذَا هَذَا الرَّأْسُ حَقِّي وَمِلْكِي وَفِي يَدِي.

ثُمَّ تَلَكَمًا حَتَّى عَيَّيَا. وَتَحَاكَمًا لِمَا بَقِيَ^(١٠). فَأَتَيْتُ صَاحِبَ الْحَمَّامِ. فَقَالَ الْأَوَّلُ: أَنَا صَاحِبُ هَذَا الرَّأْسِ. لِأَنِّي لَطَخْتُ جَبِينَهُ وَوَضَعْتُ عَلَيْهِ طِينَهُ. وَقَالَ الثَّانِي: بَلْ أَنَا مَالِكُهُ لِأَنِّي دَلَكْتُ حَامِلَهُ، وَغَمَزْتُ مَفَاصِلَهُ. فَقَالَ الْحَمَّامِيُّ: ائْتُونِي بِصَاحِبِ الرَّأْسِ أَسْأَلُهُ، أَلَيْكَ هَذَا الرَّأْسُ أَمْ لَهُ. فَأَتَيْتَانِي وَقَالَ: أَنَا عِنْدَكَ شَهَادَةٌ فَتَجَسَّمْ^(١١). فَقُمْتُ وَأَنْبَيْتُ. شِئْتُ أَمْ أُبَيْتُ^(١٢). فَقَالَ الْحَمَّامِيُّ: يَا رَجُلُ لَا تَقُلْ غَيْرَ الصِّدْقِ، وَلَا تَشْهَدْ بِغَيْرِ الْحَقِّ. وَقُلْ لِي هَذَا الرَّأْسُ لِأَيِّهِ مَا. فَقُلْتُ: يَا عَافَاكَ اللَّهُ هَذَا رَأْسِي قَدْ صَحَبَنِي فِي الطَّرِيقِ. وَطَافَ مَعِيَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ^(١٣)، وَمَا شَكَكْتُ أَنَّهُ لِي. فَقَالَ لِي: اسْكُتْ يَا فُضُولِي. ثُمَّ مَالَ إِلَى أَحَدِ الْأَخْصَمِينَ فَقَالَ: يَا هَذَا إِلَى كَمْ هَذِهِ الْمُنَافَسَةُ مَعَ النَّاسِ. بِهِذَا الرَّأْسِ. تَسَلَّ عَنْ قَلِيلٍ خَطَرِهِ^(١٤). إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَحَرِّ سَقَرِهِ. وَهَبْ أَنْ هَذَا الرَّأْسُ لَيْسَ^(١٥)، وَأَنَا لَمْ نَرِ هَذَا النَّيْسِ. قَالَ

(١) البراق: وكذلك البساق والبصاق هو الماء الذي يخرج من الفم.

(٢) يرسله: يصبه.

(٣) الأخدع: عرق في العنق.

(٤) المضمومة: اليد إذا انطبقت أصابعها سميت بذلك لانضمام أجزائها إلى بعض.

(٥) أي أنا أحق به؛ لأنني أول من تعامل معه في الحمام.

(٦) عطف عليه: أي حمل عليه.

(٧) المجموعة: مثل المضمومة أي ضربة قوية.

(٨) هتكت حجابته: أضعفته.

(٩) المعنى: ظل كل واحد منهما يضرب الآخر حتى أنهك الاثنان، فرضيا عند ذلك بمن يحكم بينهما.

بينهما.

(١٠) تجسَّم: أي عليك تحمل المشقة في أدائها.

(١١) شئنت أم أبويت: أي طوعًا مني أو كرها.

(١٢) العتيق: القديم، والمقصود الكعبة الشريفة لقدم بنائها.

(١٣) تسلَّ عن قليل خطره: أي هَوَّن على نفسك شأن هذا الرأس.

(١٤) ليس: أي عدماً ليس موجوداً.

عيسى بن هشام: فَمُتُّ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ حَجَلًا. وَلَبِسْتُ الثِّيَابَ وَجَلًّا (١)،
وَأَسَلْتُ مِنَ الْحَمَامِ عَجَلًا (٢)، وَسَبَّيْتُ الْغُلَامَ بِالْعَضِّ وَالْمَصِّ (٣)، وَدَقَّقْتُهُ
وَدَقَّقْتُهُ دَقَّ الْجِصِّ (٤) وَقُلْتُ لِأَخْرَ: أَذْهَبُ فَأَتِينِي بِحَجَامٍ يَحُطُّ عَنِّي هَذَا
الثَّقَلِ، فَجَاءَنِي بِرَجُلٍ لَطِيفِ الْبِنْيَةِ (٥)، مَلِيحِ الْحَلِيَّةِ (٦)، فِي صُورَةِ الدُّمِيَّةِ
الدُّمِيَّةِ (٧)، فَارْتَحْتُ إِلَيْهِ. وَدَخَلَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَمِنْ أَيِّ بَلَدٍ أَنْتِ؟
فَقُلْتُ: مِنْ قَمِّ (٨). فَقَالَ: حَيَّاكَ اللَّهُ؛ مِنْ أَرْضِ النُّعْمَةِ وَالرَّفَاهَةِ (٩) وَبَلَدِ
السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ (١٠). وَلَقَدْ حَضَرْتُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ جَامِعَهَا وَقَدْ أُشْعَلَتْ
فِيهِ الْمَصَابِيحُ، وَأُقِيمَتِ التَّرَاوِيحُ، فَمَا شَعَرْنَا إِلَّا بِمَدِّ النَّيْلِ، وَقَدْ أَتَى عَلَيَّ
تِلْكَ الْقَنَادِيلِ (١١)، لَكِنْ صَنَعَ اللَّهُ لِي بِخُفٍّ قَدْ كُنْتُ لِبِسْتُهُ رَطْبًا فَلَمْ يَحْصُلْ
طِرَازُهُ عَلَيَّ كَمِهِ (١٢)، وَعَادَ الصَّبِيُّ إِلَيَّ أُمَّهُ، بَعْدَ أَنْ صَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ (١٣)،
وَاعْتَدَلَ الظِّلُّ (١٤)، وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَ حَجَّكَ هَلْ قَضَيْتِ مَنَاسِكَهُ كَمَا وَجِبَ.
وَصَاحُوا: الْعَجَبُ الْعَجَبُ، فَتَنَظَّرْتُ إِلَى الْمَنَارَةِ، وَمَا أَهْوَنَ الْحَرْبِ عَلَى
النُّظَّارَةِ (١٥). وَوَجَدْتُ الْهَرَيْسَةَ عَلَى حَالِهَا، وَعَلِمْتُ أَنَّ الْأَمْرَ بِقَضَاءِ مَنْ
اللَّهُ وَقَدَّرَ، وَإِلَى مَتَى هَذَا الضَّجْرُ، وَالْيَوْمُ وَعَدُّ، وَالسَّبَبُ وَالْأَحْدُ. وَلَا

(١) وجلًا: خائفًا.

(٢) عجلًا: مسرعًا.

(٣) سببت: شتمت.

(٤) دققته دق الجص: أي ضربته ضربًا شديدًا.

(٥) البنية: الجسم.

(٦) الحلية: الشكل.

(٧) الدمية: الصورة سواء أكانت من عاج أم رخام، وجمعها الدُمى.

(٨) قم: بلد في إيران.

(٩) الرفاهة: العيش الهنيئ.

(١٠) الجماعة: أي جماعة المسلمين والسواد الأعظم منهم.

(١١) نلاحظ أن كلام هذا الشخص فيه هذيان شديد.

(١٢) فلم يحصل طرازه على كمه: ليس للخف علامات، وكلام هذا الشخص - كما قلنا - فيه

تخريف ووضع للأمور في غير مواضعها.

(١٣) صليت العتمة: أي صلاة العشاء.

(١٤) اعتدل الظل: اعتدال الظل يكون بالنهار، وبالطبع الكلام فيه تخطيط.

(١٥) النظارة: من يشاهدون الحرب عن بعد.

الرأس وهو لى؟ ثم عطف الثانى على الأول بمجموعة هتكت حجابيه، وقال: بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدي، ثم تلاكما حتى عيبيا، وتحاكما لما بقيا، فأتيا صاحب الحمام، فقال الأول: أنا صاحب هذا الرأس؛ لأنى لَطَخْتُ جبينه ووضعتُ عليه طينه، وقال الثانى: بل أنا مالكه؛ لأنى دَلَكْتُ حَامِلَهُ، وَعَمَزْتُ مفاصله، فقال الحمامى: انتونى بصاحب الرأس أسأله، ألك هذا الرأس أم له، فأتينى وقالوا: لنا عندك شهادة فَتَجَشَّمْ، فقمْتُ وأتيت، شئتُ أم أبيت، فقال الحمامى: يا رجل لا تقل غير الصدق، ولا تشهد بغير الحق، وقل لى: هذا الرأس لأيهما، فقلت: يا عافاك الله هذا الرأس، قد صحبنى فى الطريق، وطاف معى بالبيت العتيق، وما شككت أنه لى، فقال لى: اسكت يا فضولى، ثم مال إلى أحد الخصمين فقال: يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس؛ بهذا الرأس؟ تسلَّ عن قليل خطره، إلى لعنة الله وحرِّ سقره، وهب أن هذا الرأس ليس، وأنا لم نرَ هذا النَّيْسَ.

قال عيسى بن هشام: فقمْتُ من ذلك المكان خَجِلاً، ولبستُ الثياب وجِلاً، وانسلت من الحمام عَجِلاً" (١).

فقد رأينا الحماميين فى المشهد السابق لا يتحدثان عن عيسى بن هشام باعتباره إنساناً بل باعتباره متاعاً، وعندما يُحكمان صاحب الحمام فى الخصومة العجيبة بينهما حول أحقية كل منهما للرأس – أى لعيسى بن هشام – إذا بصاحب الحمام يفاجئ عيسى ويطلب منه شهادة حق، ويسأله من صاحب الرأس، فيرد بكل تعقل: إنه رأسى، ويعد صاحب الحمام هذه الإجابة العقلانية لغواً من عيسى لا تتفق والجو العبثى فى هذا الحمام؛ ولهذا يحاول الإصلاح بين الحماميين بأن يتسليا عن صاحب هذا الرأس الذى يشبه التيس، ويعتبرانه كأنه لم يكن.

وفى هذه المقامة نفسها عندما يأتى خادم لعيسى بحجام ليحلق له رأسه إذا بهذا الحجام شخص مجنون يخلط فى كلامه، وعند ذلك تتحوّل المحادثة بين عيسى وهذا الحجام إلى "حوار من طرق واحد، يطلق الحلاق المجال فيه لجدل لا ينتهى من الاستنباطات غير المترابطة، وتكون النتيجة إخفاقه فى حلق رأس عيسى" (٢).

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص234-236.

(٢) جيمس توماس مونرو: فن بديع الزمان الهمذاني وقصص البيكارسك. ترجمة: أنيسة أبو النصر. مجلة فصول. المجلد الثانى عشر. العدد الثالث خريف 1993م، ص182.

وفى هذه المقامة يبدو أبو الفتح - وهو القائم بدور الحلاق فيها - مجنوناً بحق، ويسأل عيسى بعض الناس عن سبب جنونه فقالوا له: "هذا رجل من بلاد الإسكندرية لم يوافق هذا الماء، فغَلَبَتْ عليه السُّوداء، وهو طول النهار يهذى كما ترى، ووراءه فضل كثير، فقلتُ: سمعتُ به، وعزَّ على جنونه"^(١).

وكلام ذلك المجنون لعيسى وهو يستعدُّ لحلق رأسه كله تخليط - كما قلنا - تتداخل فيه الأماكن والأزمان وتتغير حقائقها، وتتغير على لسانه الحقائق التي نعرفها، ومن ذلك قوله لعيسى: "ومن أى بلد أنت؟ فقلتُ: من قم، فقال: حيَّاك الله! من أرض النعمة والرفاهة وبلد السنة والجماعة، ولقد حضرت فى شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمدَّ النيل، وقد أتى على تلك القناديل، لكن صنع الله لى بخفٍّ قد كنتُ أيسئُهُ رطبًا فلم يحصل طِرَازُهُ على كُمِّه، وعاد الصبىَّ إلى أمه، بعد أن صليتُ العتمة واعتدل الظل، ولكن كيف كان حجك؟ هل قضيت مناسكه كما وجب، وصاحوا: العجب العجب؟"^(٢).

فالشخص المجنون فى الموقف السابق يصف (قم) بأنها أرض السنة والجماعة، وأنه صلى بها فى رمضان صلاة التراويح، مع العلم أن (قم) كانت - ولا زالت - مدينة شيعية، والشيعه لا يصلون صلاة التراويح فى المساجد.

وكذلك يعبث ذلك المجنون بالمكان وحدوده، حين يقول: إن نهر النيل قد فاض مرة فى مدينة قم، والمعروف أن نهر النيل فى قارة إفريقيا، ومدينة قم مدينة إيرانية فى قارة آسيا، ولا علاقة للنيل بقارة آسيا أو بمدينة قم على الإطلاق.

ومن هنا نقول: إن ذلك المجنون قد أحدث تشويشاً فى بعض الأمور المتعلقة بالمذاهب، وأحدث تشويشاً آخر يتعلق بالجغرافيا، والتشويش الأكبر الذى أحدثه يوجد فى "النسق السردى: كل جملة هى

(١) مقامات بديع الزمان الهمذانى، ص242.

(٢) المصدر السابق، ص237.

نحوياً مقبولة، لكن الروابط المعتادة بين الجمل لم تعد تشتغل. وبعبارة أدق فإن العناصر المؤمّنة لهذا الترابط (الضمائر وأدوات العطف) موجودة لكنها لا تنجح فى إنجاز وظيفتها حين يقول الحجام ... "وعاد الصبى إلى أمه". لا ندرى على أى سابق تعود الجملة. ونفس الشئ فى "صاحوا" وأدوات العطف .. تشتغل فى الفراغ ولا تربط بين الجمل. والأمثال التى تفسّر أو تلخّص أجزاء السياق السابقة أو اللاحقة، تخفق هنا فى أداء هذا الدور وتبقى معلّقة فى الهواء، فهى ذات معنى فى حد ذاتها، غير أنه لا رابطة لها بالمجموع"^(٢).

وقد قال أحد الباحثين: إن الهمذانى جعل أبا الفتح فى هذه المقامة حجاماً مجنوناً حتى "يتخفى وراء الجنون للأداء بآراء تتصل بالسياسة والعقائد"^(٣).

ولكن هذا الرأى – فى ظنى – بعيد عن الحقيقة، فلم يرد على لسان ذلك المجنون فى المقامة الحلوانية إلا كلام فيه تخليط وعبث، ولا يحتمل أى نقد سياسى أو عقائدى أو اجتماعى أو فكرى.

وهكذا نرى أن عيسى لم يتعامل فى هذه المقامة إلا مع مجانين – أو أشباه مجانين – باستثناء الخادمين اللذين ذكرا فيها. وكان دورهما محدوداً للغاية. أما الدور الأساسى فقد لعبه هؤلاء المجانين – أو أشباه المجانين – وكان عيسى كالغريب بينهم، وقد وُلد الحوار الذى دار فى هذه المقامة بين عيسى وهؤلاء المجانين – أو أشباه المجانين –، فكاهة عالية كما رأينا.

(٢) عبد الفتاح كيليطو: المقامات السرد والأنساق الثقافية. ترجمة: عبد الكبير الشرقاوى. الدار البيضاء، دار توبقال، ط2، 2001م، ص40.

(٣) د. عمر عبد الواحد: التعلق النصّى، مقامات الحريرى نموذجاً. المنيا، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 2003م، ص105 وانظر أيضاً للمؤلف نفسه: السرد والشفاهية. دراسة فى مقامات بديع الزمان الهمذانى. المنيا، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط2، 2003م، ص77.